الحملة الصليبية الاستعمارية على مصر وجانبها التنويرى!..

عندما ينهار الإنتماء الوطنى لدى شخص أوجماعة، فإن ذلك يدل دلالة واضحة على إنهيار العقيدة والقيم الأخلاقية فى نفوس هؤلاء الشرذمة المشوهة التى لا تعرف للوطن حقًا ولا لله عبادة ولا لأقوامها صلاحًا ولا لهويتها إدراكًا... ويتضح ذلك فى أولئك النفر الداعين إلى الأحتفال بعدوان الفرنسيين الآثم فى حملتهم الصليبية الإستعمارية على مصر وشعبها ودينها وتقاليدها وعاداتها...

يكاد لا يصدق العقل أن يقوم إناس يسكنون وطننا وينتمون لأرضنا ويتكلمون بلساننا ويظهرون لنا عقيدتنا، بل منهم من وليناهم بعض أمرنا، يدعون إلى الأحتفال بالعدوان الذى يمثل نقطة فارقة فى تاريخ حضارتنا، نقطة أدت إلى تبعية مذمومة مستمرة إلى يومنا هذا، فرّخت وأنجبت وأنبتت هؤلاء المشوهين ثقافيًا وحضاريًا حتى يحتفلون بمقتل أهلهم وإبادة علمائهم، وهلاك أسس النهضة التى كانت تلوح فى أفق الشرق، وسرقة آثار ومخطوطات ووثائق حضارتهم وتراثهم!

ومن اللافت للنظر والداعى إلى الدهشة، أنه حتى الأمناء الذين اعترضوا على هذه الأحتفالات، راحوا يفصلون ويجزؤن الحملة، ويعترضون على الجانب العسكرى الدموى التغريبى منها، ويرحبون بالجانب العلمى لها، ذلك الجانب الذى يطلق عليه زوراً وبهتانًا «الجانب التنويرى» أو «التحديثى»، فى حين أن الجانب العسكرى والجانب العلمى وجهان لعملة واحدة!...

وقبل الاسترسال فى هذا الموضوع نبدأ ببعض الاستشهادات بأقلام من صنعوا وعاشوا وعثوا فى هذه المجازر أو علقوا عليها:

«كان هدف حملة بونابرت على مصر تحويل مصر إلى مستعمرة لفرنسا تجنى

من ورائها كسبا. ولتحقيق هذا الهدف لم تكن اللجنة العلمية أقل أهمية من الجيش» (كرستوفر هيرولد: **بونابرت فى مصر**).

«كانت المهمة الأساسية للمستشرقين المرافقين للحملة الفرنسية القيام بحلقة الوصل بين الشعب والسلطات الفرنسية وترجمة بيانات مجلس القيادة إلى العربية كما كان عليهم القيام بالترجمة الفورية.. ولقد استفاد مستشرقونا من وجودهم فى مصر لتحسين معرفتهم باللغة العربية» (جان – مارى كاريه: **رحالة وأدباء فرنسيين فى مصر**).

«بعد رحيل الحملة ظلت فرنسا وفية لتوجهات ودروس لجنة العلوم والفنون والمعهد العلمى حيث قادت بها مصالحها السياسية والأقتصادية على أحسن وجه» (إدوارد دريو: **موجز تاريخ مصر**).

ولا أدل على معنى الجانب «التنويرى» من تلك الفقرة التى أوردها محمود محمد شاكر فى كتابه من خطاب نابليون، بعد رحيلة عن مصر، إلى خليفته كليبر: «اجتهد فى جمع ٥٠٠ أو ٦٠٠ شخصًا من المماليك حتى متى لاحت السفن الفرنسية نقبض عليهم فى القاهرة أو الأرياف وتسفرهم إلى فرنسا، وإذا لم تجد عدداً كافيًا من المماليك، فاستعض عنهم برهائن من العرب ومشايخ البلدية، فإذا ما وصل هؤلاء إلى فرنسا يحجزون مدة سنة أو سنتين. يشاهدون فى أنحائها عظمة الأمة (الفرنسية) ويعتادون على تقاليدنا ولغتنا، ولمّا يعودون إلى مصر يكون لنا منهم حزب يُضم إليه غيرهم».

«كنت قد طلبت مراراً جوقة تمثيلية. وساهتم اهتمامًا خاصًا بإرسالها لك. لأنها ضرورية للجيش، وللبدء فى تغيير تقاليد البلاد» (**رسالة فى الطريق إلى ثقافتنا**).

ومضمون الرسالة غنى عن الشرح والتعليق فالمطلوب هو الإفساد والإبتعاد عن الهوية وتكوين حزب من الأتباع، يعاونه على تغيير عادات وتقاليد البلاد. ذلك هو الدور «الثقافى» الذى تقوم به فرنسا الصليبية بعد أن فشلت فى حملتها الدموية الغاشمة... وهذا الدور القائم على الإفساد وإقتلاع الهوية هو الذى تم فى البعثات

التعليمية التي بدأت بعد ذلك منذ عهد محمد على عام ١٨٢٦، ومازالت المحاولات دائبة حتى يومنا هذا.

أما المطبعة التي يتغنى بها البعض فقد أحضرها نابليون معه ليطبع عليها جميع منشوراته التي كانت كلها قائمة على الفسق والخداع والتلاعب بالدين، وأول كتاب طبع عليه فكان «تطبيقات فى العربية الفصحى» لخدمة دارسي العربية من أفراد حملته وقد قام المجمع بإصدار صحيفة أسبوعية هى **«كوريبه دى الجيبت»** (بريد مصر)، ودورية أدبية اقتصادية - سياسية، تعد لسان حال المجمع، بعنوان **«لا ديكاد إجبسيين»** (العقد المصرى) وكانت فى حقيقة الأمر مركزاً لتجميع البيانات والمعلومات لتصب فى كتاب **«وصف مصر»** أو فى غيره من المجالات... إلى جانب طباعة الحوليات، وكتاب قواعد باللهجة العامية وآخر عن **«سقوط القسطنطينية»** باللغة العربية.

ولا يختلف الهدف الذى دعا نابليون وفريق العلماء إلى الإهتمام بما أطلقوا عليه عمليات الإصلاح إلا حاجتهم الملحّة إلى ذلك. فبعد انهزامهم فى معركة أبى قير كان عليهم الاعتماد على أنفسهم فى إعادة تكوين ما يحتاجونه من معدات لمواصلة الاحتلال والتدمير، فبدأت المشاريع، ومنها بناء الترسانات ومصانع البارود والطواحين والأفران والمستشفيات والمدارس وشق الترع بل واستزراع بعض المحاصيل وتحسين وسائل الزراعة إلخ... فهل كان ذلك كله حباً فى مصر وأهلها الذين كانوا يواصلون إبادتهم أم لاستيفاء احتياجاتهم الملحة لمواصلة إستعمارهم؟!

أما عن مجال الآثار، فحدث ولا حرج!!

ولن نذكر سوى واقعة واحدة مما أورده فيفان دينون الذى «اكتشف» عند رؤيته أحد المعابد أن المصريين القدماء كانوا يعرفون الكتابة وأنه كانت لديهم «كتب»! وكم كانت دهشته عندما تأكد له بالبرهان القاطع إذ «ما هى إلا سويعات حتى أمتلكت الدليل بين يداى فقد حصلت على مخطوط فى يد مومياء رائعة الجمال أحضروها لى» **(رحلة فى مصر السفلى والعليا)**.

ويعلق جان مارى كاريه على هذه العبارة قائلاً: «إننا ندرك مدى انفعاله، فحتى هذه اللحظة لم يكن الرحالة الفرنسيين قد جلبوا للمكتبة الملكية سوى مخطوطات

books4all.net

قبطية وسريانية وعربية. لكنها كانت أول مرة منذ الفترة المسيحية أو القرون الوسطى البعيدة التي يتم فيها اكتشاف بردية » **(رحالة وأدباء فرنسيين فى مصر)**.

بل لقد كان ولعهم بجمع المخطوطات وإدراكهم لأهميتها أن جان جوزيف مارسيل، مسئول مطبعة الحملة قد قام « بحركة بطولية » فى نظر جان مارى كاريه الذى يورد فى المرجع السابق الذكر أنه « أثناء ثورة القاهرة، فى أكتوبر ١٧٩٨، وبينما كانت مدافع دومَارتان تدك الجامع الأزهر، مركز التمرد الشعبى، ألقى جان جوزيف مارسيل بنفسه وسط النيران لينتزع منها مخطوطات قرآنية نادرة » - ولا شك فى أنه لم ينقذها حبًا فى الإسلام وإنما لتضم إلى بقية المخطوطات بالمكتبة الملكية الفرنسية ومكتباتها الأخرى...

وينهى جان مارى كاريه هذه الفقرة بالعبارة التالية: « والمعروف طبعًا أن حجر رشيد وتابوت نكتانبو، إلى جانب العديد من قطع الآثار الأخرى، قد صادرتها سلطات الأعداء وأخذتها إلى المتحف البريطانى »!!.

ونطالع فى نفس المرجع - وهو من إصدارات المعهد العلمى الفرنسى بالقاهرة، أى أننا لا نتجنّى عليهم بهذه المعلومات - أنه بعد استسلام مينو عام ١٨٠١، « إضطر علماء الحملة إلى إستخدام كافة الوسائل الدبلوماسية الماهرة الحيوية ليأخذوا معهم إلى فرنسا، رغم حظر انجلترا، كل عيناتهم من النباتات الجافة، ومجاميعهم من المعادن والحيوانات، وكراتينهم المليئة بالخرائط والرسومات، وجزءاً من الآثار التى كانوا قد أكتشفوها ».

بل لقد كان بين أعضاء هذه الحملة « العلمية » مسئولاً عن انتقاء قطع الآثار وصيانتها وتغليفها لشحنها إلى باريس... وليست المسألة بحاجة إلى دليل إضافى أو أية وثائق أخرى، فالواقع وحده بكل ما تضمه متاحفهم من آثار مصرية بمختلف عصورها يشهد على سرقاتهم المخزية.

وإذا ما لخصنا أهم النقاط الواردة فى المقتطفات السابقة، لوجدنا أن مهمة « الجانب العلمى » فى تحويل مصر إلى مستعمرة فرنسية - وهو من الأهداف الرئيسية للحملة باعتراف من اقترفوها - تنقسم إجمالاً إلى قسمين: متطلباتهم الشخصية من إستطلاع أو تجسس وإدارة شئونهم السياسية والاقتصادية، وتكوين فريق من العملاء

والأتباع، وسرقة الآثار والمخطوطات والنفائس، والقسم الآخر، وإن كان لصالحهم أساساً أيضاً، وإنما يقع أثره على المجتمع مباشرة، وهو: الاقتلاع من الهوية المصرية الإسلامية وتغيير عاداتنا وتقاليدنا حتى عن طريق الفنون والمسرح وخلع حجاب المرأة بزعم أنه من باب الأمن، كما قال نابليون! ونشر الفساد وبيوت الدعارة وإباحة بيع الخمر وما إلى ذلك... ويكفى أن نقرأ ما كتبه بيير لوتى **Pierre Loti** حول التغيير الذى طرأ على البلاد من بعد الحملة المشئومة على مصر، إذ راح يندب موت القاهرة «التى تحولت إلى سوق دولية حيث أتت إليها الحضارة الفرنسية بالخمّارات والقمار والبيوت المشبوهة وفتيات الليل... وأن تغريب مصر أو فرض الحضارة الغربية عليها يطفىء طابعها ويكتم تألقها ويقلل من قوة إبداعها وإلهامها» **(موت فيلة)**.

فإذا كانت الحملة الصليبية الاستعمارية الدموية على مصر قد فشلت بكل مجازرها فى إقتلاع الإسلام، فإن الحملة «التنويرية» التى سبقتها وواكبتها واستمرت بعدها لتربطنا فى تبعية مذمومة حتى يومنا هذا، تعتمد على التسلل البطىء فى تغيير العادات والتقاليد والقيم والمفاهيم، وكلها عوامل تؤدى على المدى الطويل إلى التراخى والابتعاد عن الإيمان بالله وعن الالتزام بتعاليمه عز وجل...

أليس من الأكرم لنا وأتقى أن نتمسك بديننا وعقيدتنا وتراثنا وتقاليدنا الإنسانية، ونجعل من ذلك العام المزمع فيه إقامة احتفالات مهينة مخزية، عام يقظة لضمائرنا، تكرس فيه أجهزة الإعلام والمؤسسات الفكرية والثقافية والجامعية للتعريف بحقيقة هذه الحملة الصليبية الإستعمارية، لكى لا نهدر دم شهدائنا، وأن نطالب بإعادة ما سلبوه ونهبوه من تراثنا، لكى لا نفرط فى كياننا وفى حضارتنا أكثر مما فرطنا، وأن نطالب بالتعويضات عن نفقات هذه الحملة الضارية التى أعلن نابليون أن تتم على نفقات الشعب الذى غزاه، إذ قال: «أن على الفلاح أن يتحمل العبء كله»؟! بل سنرى عما قليل، فى «**وثائق ما قبل الحملة**» كيف أن فرض الضرائب على الشعب المصرى لتغطية نفقات الحملة كان جزءاً من الخطة!

اتقوا الله فى الوطن، ودم الشهداء، والتاريخ الذى يتم تحريفه!.

* * *